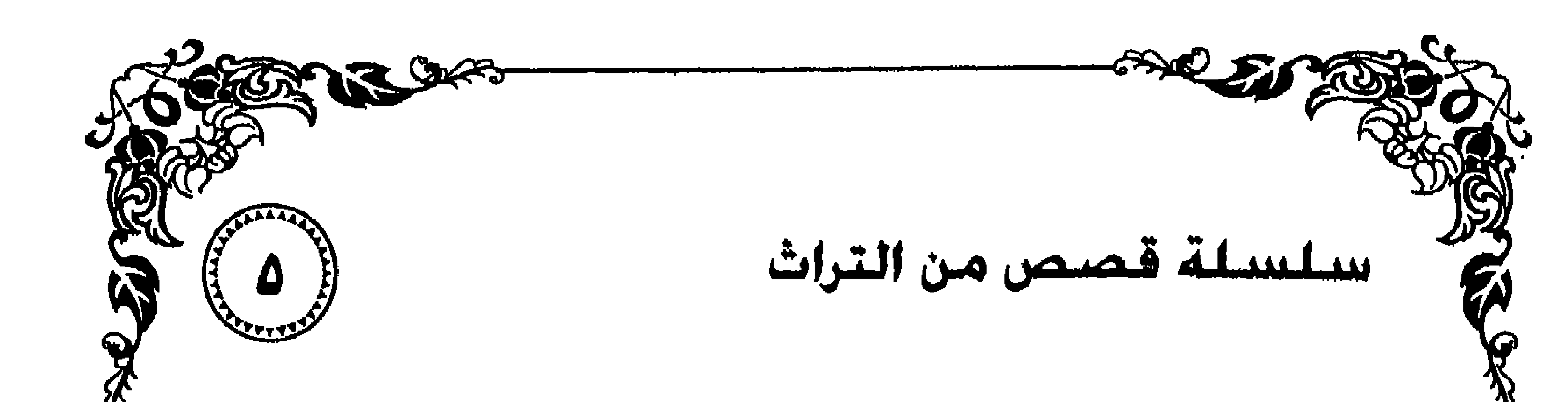


سلسلة قصص من التراث

٥

حصار عكا

خليل محمود الصمادي

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصمادي، خليل محمود

حصار عكا.ــ الرياض.

٢٠ ص، ١٧×٢٢ سم ــ (سلسلة قصص من التراث)

ردمك: ٩ ــ ٩٨٤ ــ ٢٠ ــ ٩٩٦٠

١ــ القصص القصيرة العربية ــ السعودية

أ ــ العنوان ب ــ السلسلة

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٥٤٢

ردمك: ٩ــ ٩٨٤ ــ ٢٠ ــ ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١٥٤٢

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

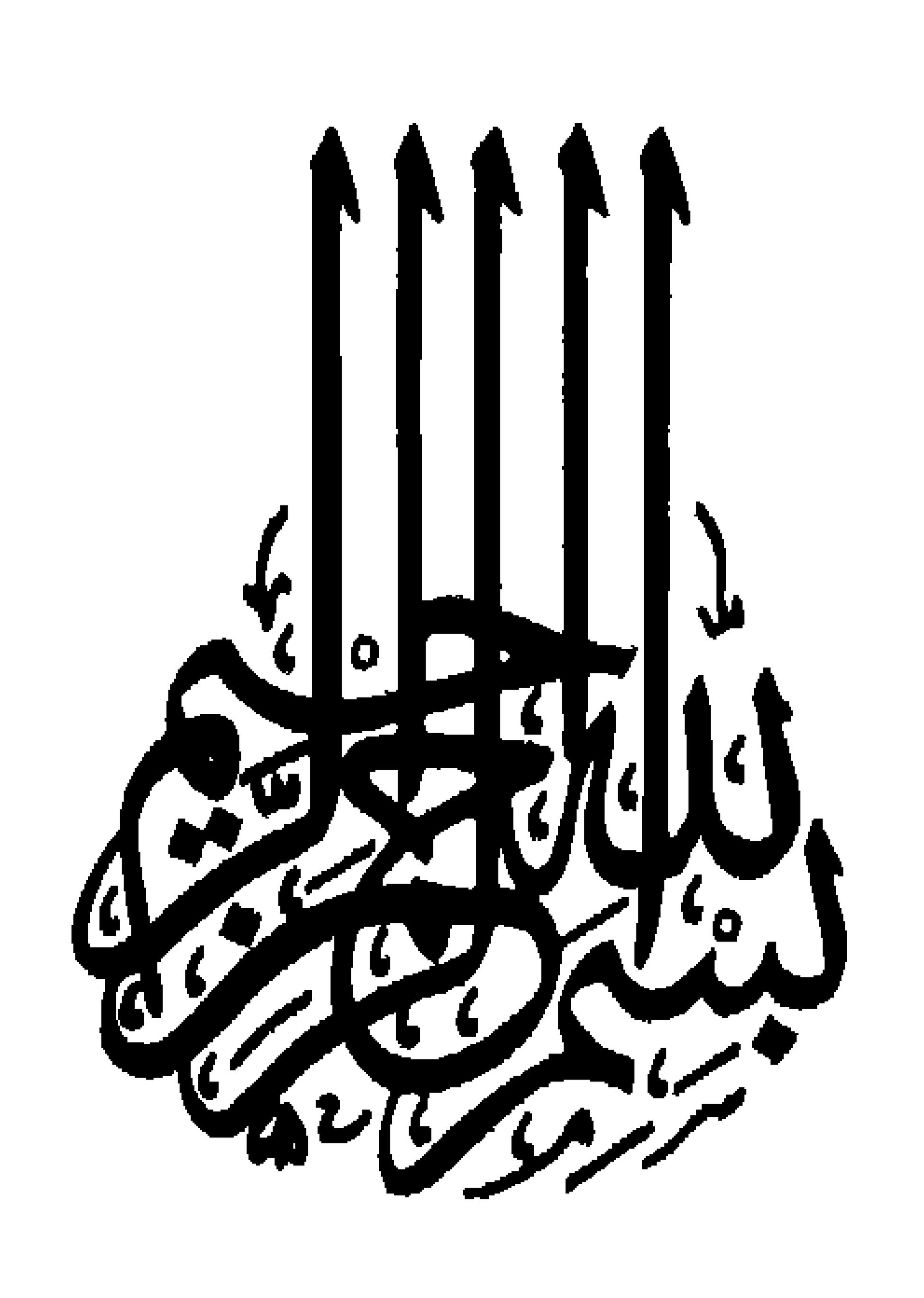
الناشــــــر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



عادَ الأَمنُ والاطمئنانُ إلى دمشْقَ، في عهد صلاحِ الدين الأيوبيِّ وكثرتِ المدارسُ والرباطاتُ والزوايا والمساجدُ، وصارَ في كلِّ حيٍّ مدرسةٌ أو أكثرُ تعلِّمُ الطلابَ القرآنَ والفقهَ واللغةَ والحسابَ، والعلومَ وغيْرَهَا.

كانَ هناكَ في وسط المدينةِ أسرةٌ تعيشُ على الكفاف.. هذه الأسرة مؤلفةٌ من عثمانَ وزوجتِه وابنهِ اليافع مجاهدٍ وإخوته الصغار.

كانَ أبو مجاهدٍ يعملُ عطَّارا في سوقِ العطارينَ، يبيعُ ويشتري ويركِّبُ الموادَّ المستخلصةَ منْ الورودِ وغيرها.

كانَ تقيًّا ورعًا يتحرَّى الصدقَ في قولِه والإخلاصَ في عملِه، كما كانَ يحبُ العلمَ والعلماءَ فما إنْ كبرَ مجاهدٌ قليلاً حتَّى أرسلهُ إلى إحدى هذه المدارس لينالَ حظَهُ من الأدب والعلم.

أحبَّ مجاهدٌ مدرسَتهُ ومؤدبيه(١) وأصدقاءه، وصارَ يحفظُ القرآنَ الكريمَ والأحاديثَ الشريفةَ والأشعارَ، كما أحبَّ العلومَ فبرعَ فيها، وصارَ يقومُ ببعضِ التجاربِ العلميةِ اليسيرةِ في بيتهِ فكانَ إخوتُهُ الصغارُ وأصدقاؤهُ يعجبونَ بتجاربه المثيرة.

وفي أوقاتِ فراغهِ كان يذهبُ إلى دكانِ والدِه يساعدهُ في البيعِ والشراءِ

(١) المؤدب: معلم الصبيان.

ويعملُ معهُ في تحضيرِ بعض العطورِ التي يوصي بها الزبائنُ.

كَبِرَ مجاهدٌ وأصبحَ شابًا يافعًا وكَبُرَ علمُهُ فقد حفظَ القرآنَ الكريمَ وأخذَ إجازةً[١] بذلك منْ شيخهِ الذي أحبَّه كثيراً، كما فاقَ أقرانهُ في المدرسةِ وخاصةً في الموادِّ العلميةِ التي شُغِفَ بها كثيراً.

طوَّرَ أعمالهَ في التجاربِ فقد جهّزَ مختبراً في منزلهِ وظلَّ يجري التجاربَ ويخترعُ موادَّ كانَ يركبُها منَ الأدويةِ والنفط والكبريتِ، . . .

ضاقَ أهلُه منَ هذهِ التجاربِ التي كانتَ تزعجُهمَ في بعضِ الأحيانِ، فقدْ حدثَ في يوم ما انفجارٌ دوَّى صوتُه ففزع الجيران، فطلب منه أبوه أن يبتعد عنْ هذه الأشياءِ.

لكنَّ مجاهداً ألحَّ على أبيهِ أنّ يظلَ في تجاربهِ، فوافقَ والدُه على شرطِ ألا يزعجَ الجيران، وأنْ يقومَ بتجاربهِ بعيداً عن المنازلِ وأنْ ينأى[٢] عنَ الخطر. .

فرحَ مجاهدٌ وصارَ يخرجُ في أوقاتِ فراغهِ مع أصدقائه إلى البساتين المحيطةِ بدمشقَ وهناكَ وفي مكانٍ بعيدٍ كانَ يقومُ بتجاربه، ويعودُ إلى بيتهِ وَهُوَ مطمئنُ البالِ مما وصلَ إليهِ. وظلَّ على ذلك مدةً حتى برع بتجاربه المثيرة.

أحبَّ أبو مجاهدٍ أنْ يؤديَ فريضةَ الحجِ. . فقامَ وجهَّزَ راحلتَهُ وأوصى

(١) الإجازة: الإذن بالرواية.

(٢) ينأى: يبتعد.

مجاهداً بأمهِ وإخوتِه كمَا أوصاهُ أن يفتحَ المحلَ كلَّ يوم وأنْ يحسن معاملةَ الزبائن.

غادَرَ أبو مجاهدِ دمشقَ معَ مجموعةٍ من الناسِ قاصدينَ مكةَ المكرمةَ،

وفي طريقهم وبالقرب من الكركِ، اعترضتهم مجموعة من جنودِ الأميرِ الصليبيبي أرناط، ثم ساقوهم إلى مقر الأمير بعد أن أشبعوهم ركلاً وشتماً.

تقدمَ الأميرُ أرناطُ منهمْ وقال لهم إلى أين أنتمْ ذاهبونَ أيهَا المسلمونَ؟

تقدمَ أبو مجاهدٍ قائلاً: إلى بيتِ اللهِ الحرامِ لأداءِ فريضة الحجِ.

قالَ أرناطُ: إلى مكةَ. ها ها.. أمازلتم أيها المسلمونَ تذهبونَ إلى مكةَ.. ساريحكم منها سأسيِّرُ الجيوش إليها وأحتلها كما سأحتل المدينة وأنبش قبرَ نبيكمْ!!

عندها لم يتمالك أبو مجاهدٍ فصرخَ بهِ اخرسْ أيها الوغدُ الحقيرُ.

هجمَ أرناطُ وجنودُه على القافلةِ فقتلوا أبا مجاهد وعدداً من الرجال وأسروا آخرينَ ونهبوا كلَّ ما معهم، وقد تمكن بعضُ المسلمينَ من الفرارِ..

كان صلاحُ الدينِ مرابطًا في فلسطين يناوشُ[1] قلاعَ الصليبين

(١) يناوش: يقاتل القوم بالرماح وغيرها.

ويستدرجهمْ إلى المعركةِ الفاصلةِ، فلما وصله الخبرُ استشاطَ غيظًا وأقسمَ على قتلِ أرناطَ بيدهِ.

كما وصلَ الخبرُ المزعجُ إلى دمشقَ، وعلمَ مجاهدٌ ما حصل لأبيهِ وصحبهِ، فحزنَ عليهمْ. واحتسبَهم عند الله، ودعا لهمْ بالرحمةِ والمغفرةِ.

جلستْ أمُّ مجاهدٍ مع أولادها والحزنُ واجمٌ على وجوهم وقالتْ لهم: هذا أمرُ الله يا أبنائي، رحمَ اللهُ أباكمْ، وأدخلهُ فسيحَ جناته لقد مات وهو محرمٌ وإن شاء الله سيأتي يوم القيامة ملبيًا فادعوا له بالرحمة. الآن أصبحَ مجاهدٌ رجلَ البيتِ، هُوَ المسؤولُ عنا، علينا أن نسمعَ كلامَهُ، وعليهِ أنْ يحسنَ معاملتنا كما كانَ والدُكم يفعلُ.

شعرَ مجاهدٌ أنَّهُ أصبحَ رجلاً على الرغم من حداثةِ سنِّهِ، صارَ يحنو على أمهِ وإخوتهِ الصغار، كان يذهبُ كل يومٍ مبكرًا إلى قلعةِ دمشقَ ويقفُ جانب أحد أبوابها ويملأ وعاءه بالحليب من الميزاب[1] الذي أوقفَهُ[2] صلاحُ الدينِ على أطفال المسلمينَ الفقراءِ، ويعود بهِ إلى البيتِ ليشربَ منهُ إخوتُه الصغارُ، ثمَّ يذهبُ إلى محلِ أبيهِ في سوقِ العطارينَ يبيعُ ويشتري، كما كان أبوهُ يفعلُ.

(١) الميزابُ: أو المزراب: مجرى السوائل من السطح إلى الأرض.
(٢) أوقفه: جعله في سبيل الله.

وظلَّ على هذه الحالِ أيامًا وشهوراً وفي كلِّ يومٍ يزدادُ خبرةً في عمله؛ فأحبَهُ جيرانُه وزبائنُهُ حبًا كبيراً.

لم ينسَ مجاهدٌ تجاربَهُ العلميةَ فكانَ في كلِّ يومِ جمعةٍ يخرجُ بعد الصلاة إلى أطرفِ الغوطةِ ويُجْرِي بعض تجاربه، كما كانَ يترددُ على بعضِ المكتباتِ لينسخَ منها بعضَ الكتبِ العلميةِ.

كان في بعضِ الأحايين يذهبُ إلى المشفى النوري - الذي بناهُ السلطانُ نور الدين محمود الشهيد من مالٍ أخذه فديةً من أحد ملوك الفرنج(١) ليساعدَ الأطباء والصيادلة في تحضير بعضِ الأدوية فكانوا يسرُّون بقدومه ويستفيدونَ من خبرتهِ.

تابعَ مجاهدٌ باهتمامٍ الأنباءَ التي وردتْ إلى دمشقَ وبشَّرت المسلمينَ بانتصار صلاح الدين على الصليبين في معركة حطينِ عامَ ٥٨٣ ففرِحَ فرحًا عظيمًا وازداد فرحُه يومَ علمَ أن صلاحَ الدين الأيوبي قام بقتل الأميرِ أرناطَ بيدهِ وكان قد عفا عن بقيةِ الأمُراءِ، لكنهُ تمنى لو أنهُ هو الذي قطَّ رأسهَ عبرةَ لمن تسول له نفسُه التطاولَ على نَبيِّ المسلمين ومقدساتهم.

ذهبَ إلى بيتهِ يزف البشرى لأمِّهِ وإخوتهِ، ففرحوا فرحًا شديداً ودعوا

---

(١) الفرنج: قومٌ من النصارى.

لشهداءِ المسلمينَ بالرحمةِ والمغفرةِ.

وظل يتابع أخبارَ المسلمينَ كلَّ يوم ونفسه تتوق[١] للجهاد في سبيل الله، وكمْ تمنى أنْ يكونَ جنديًا في جيشِ صلاحِ الدين الذي طارتْ سمعتهُ في الأنامِ، والأفاق كانت القوافلُ في كل مرة تأتي بأخبارٍ جديدةٍ عن انتصارهِ على الصليبين في القلاع والحصون.

وبعدَ أشهر قليلةِ جاءَه الخبرُ المفرحُ.. لقد تحررت القدسُ وعادَ المسجدُ الأقصى يصدحُ بالأذانِ في عنان السماء بعد ثمانين عامًا من الاحتلالِ بعد أن كان اصطبلاً لخيولِ الصليبين.

وعادت المساجدُ الأخرى في القدسِ وعادَ المسلمونُ إلى ديارهمْ فرحين وخرجَ الصليبيونَ بعد أنْ أدوا الجزيةَ وهم صاغرونَ[٢] وغنمَ المسلمونَ منهم صليبهم الذي رفعوه مدة من الزمن فوقَ المسجدِ الأقصى وسموهُ «صليبُ الصلبوتِ» وسمحَ لهم صلاحُ الدينِ بحمل ما يشاؤون من متاعهم، فعاد أكثرهم من حيث أتوا وفرَّ بعضُهم إلى الحصونِ المنيعةِ، واستقرَّ قليلٌ منهمْ في بعضِ مدنِ الساحلِ وخاصة في عكا معاهدينَ مسالمينَ.

---

(١) تتوق: اشتاق.

(٢) صاغرون: أذلاء.

كـانَ لهـذه الأنبـاء الأثر الطيبُ في نفـوس المسلمين الذين عـرفـوا حـلاوة الجهادِ ففرحوا ودعوا الله بتخليص البلادِ ممن تبقى من الصليبين.

شـاهد عـابدٌ المنبـر الذي كـان نور الدين قـد أمـرَ ببنائهِ في حلبَ إذ مـرَّ بدمـشقَ في مـوكـب مـهـيب فـتـدافعَ المسلمـونَ لرؤيتـهِ فـدعـوا لصـلاح الدين والمسلمينَ بالنصر على أعدائِهم، وتابع الموكبُ سيره في طريقه إلى القدس.

رجعَ مـجـاهد إلى بيـتـهِ يحـدث أمَّـهُ وإخـوتَهُ عنَ المنبـر وعظمـتـه وبراعـةِ صناعته وعن الذيِ أمرَ بصناعته فدعوا لهُ بالرحمة والمغفرةِ، بعد أيام وصل المنبر إلى القـدس ومن فوقه خطبَ صلاحُ الدين خطبةً أعادتِ القوةَ والعزةَ للمسلمينَ طلبَ مجاهدٌ منْ أمهِ أن تسمحَ له باللحاقِ بالمجاهدينَ، فقـالتْ لهُ: مـازلتَ صـغـيرًا يا بني وأنت مسـؤول عن أسـرةٍ، والآنَ هدأتِ الحـروبُ وهربَ أكثرُ الصليبينَ إلى بلادِهمْ.

اشـتـدَّ جنون الفـرنجِ وساءَهم تحريرُ القـدسِ، وطردُ الصليبين منهـا، فـقـامَ رهبـانهـم وقـسـاوسـتـهـم وفـرسـانهـم في أوروبا بلبسِ السـوادِ، والطواف في بلادِهم يستنجدونَ أهلها ويستجيرون بهمْ، ويحثونهمْ على الأخذِ بثأرِ بيتِ المقدسِ وقاموا برسم المسيح عليه السلام، وجعلوا عربيًا يضربه ونثروا الدماءَ على الصورةِ وقالوا لأتباعهم:

هذا المسيحُ يضربُه محمدٌ نبيُّ المسلمينَ وقد جرحَهُ وقتلَه!!

عظمَ ذلكَ على الفرنج وحَشدوُا الحشود حتى النساءَ خرجن معهم وجمعُوا الأموالَ العظيمةَ ونفروُا من بلدانٍ كثيرةٍ، قاصدينَ سواحلَ الشامِ..

ها هي مراكبهم العظيمةُ ترسوُ قبالةَ ساحلِ عكَّا، تحملُ الآلافَ من المقاتلينَ والفرسانِ والسلاحِ والعتادِ.

وقد ساعدهم في الوصولِ إليها مَنْ بقي من الصليبينَ فيها، وقاموا باحتلالِ جزءٍ في البلدِ، فقويتْ شوكتُهُم

كانَ صلاحُ الدين يتابعُ فتوحاتِهِ في بعضِ البلدانِ، ولما جاءَهُ الخبرُ، سارعَ معَ جنودِهِ إلى عكَّا حتى قاربهم، ولما رأى كثرتهم وعتادَهم أرسلَ الكتب إلى البلدان القريبةِ منهُ يستفزهم[1] مقارعةَ أعداءِ اللهِ.

وصلتِ الكتبُ إلى دمشقَ وحمصَ والقدسِ وبغدادَ ومكةَ والموصلِ وغيرها من بلاد المسلمين.

ولما صل الكتابُ إلى دمشقَ، وقُرئَ في المساجِد، وسَمع مجاهدٌ الإمام يقولُ: منْ كانت لديهِ القدرةُ على مقارعةِ الصليبينَ فليذهبْ إلى عكَّا لمساعدةِ المسلمين.

(١) يستفزهم: يحثهم.

انطلق مجاهدٌ إلى بيتِه فقد عَزَمَ على الرحيلِ إلى عكَّا، استأذن أمَّهُ، فحاولتْ منعَهُ قائلةً لهُ:

يا بنيَّ لم تبلغْ مبلغَ الرجالِ بعد وتنقصكَ الخبرةُ في القتالِ، وأنتَ رجلُ البيتِ، وليسَ لنا بعدَ، اللهِ إلا أنتَ.

- ونِعْمَ باللهِ يا أمي، قلْ لنْ يصيبنا إلا ما كتبَ اللهُ لنَا، الجهادُ فرض عين على كلٍّ قادرٍ، وأنا يا أُمي صرتُ قادراً على الجهادِ، سأثأرُ لأبي ولجميع المسلمين.

- سرْ يا بنيَّ على بركةِ اللهِ، سادعوُ لكَ ولإخوانكِ المسلمينَ.

وما كادت أم مجاهدِ تنهي كلامها إلا غلبها البكاءُ، فأقبل مجاهدٌ نحوَها فضمتهُ إلى صدرِها ومسحتْ بيدِها على رأسِهِ وقالت: باركَ اللهُ فيكَ يا بنيَّ، ونصرك على أعداء المسلمين.

خرجَ مجاهدٌ منْ منزلهِ وانطلقَ مع مجموعةٍ من أبناء حيِّهِ قاصدين عكَّا وبعد أيامٍ وصلوُا إلى أسوارِها الشامخةِ، ورابطوا هناكَ مع المجاهدين الصابرين. حاولَ مجاهدٌ أنْ يكونَ في مقدمةِ المجاهدينَ لكنَّهُ لم يستطعْ فقد طلبَ منهُ أحدُ القادةِ أنْ يكونَ في مؤخرةِ الجيشِ ليقومَ بمساعدةِ المجاهدينَ وتقديم الخدمات لهم، فوافقَ على ذلكَ، إلا أنهُ كانَ متشوقًا إلى مقارعة أعداءِ اللهِ.

كانت الإمداداتُ الكثيفةُ تصلُ للصليبينَ من البحر كلّ يومٍ، وتمكنوا من تشديد الحصار على عكا من البحر إلى البحر وشرعوا في حفر الخندقِ العظيم، وعملوا سوراً من الترابِ الذي أخرجوه من الخندقِ ليتحصنوا به منَ المسلمين.

كانَ صلاحُ الدينِ مشغولاً بقتالِ جحافلهم(١) في الطرفِ الآخرَ من المدينة، وظلت المناوشات بين الطرفين أيامًا عديدةً، طلبَ من بعض الجنودِ الأقوياءِ التسللَ إلى عكا لمساعدة الجيش المرابطِ هناك ومساعدةِ الأهالي الصابرين.

أصرَّ مجاهدٌ على الانحراطِ في صفوف الفدائيين الذي سيقتحمون المدينة، ولم تكن العمليةُ سهلةً فرماحُ الصليبين لم تتوقف طلية النهار، وهم يتترسون(٢) بالتلالِ الترابيةِ.

وبعون الله تمكنت مجموعةٌ من الأبطال الاقترابَ من أسوارِ عكا والدخولِ منْ أحد أبوابها في جنح الليل وكانَ بينهم مجاهدٌ.

وهناك التقوا معَ القائدِ قراقوشَ الذي فرحَ بمقدمهمْ واستبشر خيراً.

---

(١) الجحافل: الجيوش الكثيرة.

(٢) يتترسون بالتلال: يتخذونها واقيًا لهم.

حاولَ مجاهدٌ أن يجدَ لهُ مكانًا بارزًا بين المجاهدين لكنَّ القائد طلبَ منه أن يبقى في مؤخرةِ الجيشِ أيضًا رثيما يتدربُ على القتالِ أكثر، فمازال عوده طريًا.

انسحبَ صلاحُ الدين إلى حِصْن الخروبة القريبِ من عكًّا؛ خوفًا من انتشار الطاعون بين جنوده وظنَّ أنَّ قوةَ المسلمينَ في المدينة تكفي لدحرِ الصليبينَ وإرغامهم على مغادرة البلاد.

وما إنْ علمَ الصليبونَ برحيل صلاحِ الدين، حتىً فرِحُوا كثيرًا، وقاموا بالاستعداداتِ الكثيفة لمنازلةِ المسلمينَ، وكانت الإمداداتُ الكثيرةُ تصلهم كلَّ يومٍ ومئات المقاتلينَ يرفدونهمْ[1] وكانتِ المناوشاتُ بين الطرفينِ تدومُ طيلةَ النهارَ . . .

ولكنْ حدثَ أمرٌ جللٌ أرَّق المسلمين كثيرًا.

لقد جلبَ الصليبيونَ ثلاثةَ أبراج من الخشبِ عالية جدًا، طولُ كلٌ برجٍ ستونَ ذراعًا وعملوُا في كلٌ برج منها خمسَ طبقاتٍ، وقد اختاروا لهذهِ الأبراج أجودَ أنواع الخشبِ الذي جمعُوه منَ الجزائر حينما مرّوا منها. انتشر جنود الصليبين على طبقات هذه الأبراج وصاروا يرمون مواقع المسلمين

(١) يرفدونهم: يساعدونهم ويدعمونهم.

بنبالهم ونيرانهم. حاولَ المسلمونَ قذفَ هذهِ الأبراجِ بالنيرانَ الملتهبةِ ولكنهمْ فوجئوا أنَّ النيرانَ لا تؤثرُ فيها أيَّ تأثيرٍ، وحاولُوا وحاولوا لكنهمْ لمْ يفلحوا، كانتْ هذه الأبراجُ في كلِّ يومٍ تتقدمُ قليلاً إلى مواقع المسلمينَ مما ينذرُ ذلكَ بالخطر.

علمَ المسلمونَ سر هذهِ الأبراجِ، فقد قام الصليبيونَ بتغطيتها بالجلود السميكةِ، والخلِّ، والطينِ والأدوية التي تمنعُ النارَ من إحراقها. لم يعد حديثُ أهلِ عكّا في هذه الأيام الحرجةِ إلاّ عنْ هذهِ الأبراجِ اللعينةِ التي كادتْ أن تُسقطَ المدينةَ.

فرحَ الصليبيونَ بأبراجهم العملاقة، وقاموُا بصنع المزيد منها، ونشرها على خطوط المواجهةِ لترمي المسلمينَ بالنيران والحجارةِ، وفعلاً أضرَّت بالكثير منَ المجاهدين وبأهل عكًّا رجالِها ونسائِها وشيوخِها وأطفالِها..

أرسلَ قراقوش رجلاً سبح في البحر إلى صلاحِ الدينِ ليعلمهُ الأمر. وما أن وصله الخبر حتى ركبَ هُوَ وعساكرُه وتقدموا إلى الفرنجِ، وقاتلوهم من جميع جهاتهم قتالاً عظيمًا؛ ليشغلوهمْ عن قتلِ الأهالي في عكا ودامَ القتالُ ثمانية أيام متواصلةِ، ولكنّ الأبراج كادتْ أنْ تحسمَ المعركة في هذهِ المرة لصالح الصليبين، لأن نيرانها أطالتْ جندَ صلاحِ الدين...

يئسَ المسلمونَ منْ مقارعةِ الصليبين وأبراجهِم التي فوجئوا بقوتِها، وقدْ عجزوا عن المقاومة لم يتركوا حيلةً إلا وعملوُها فلم يفد ذلكَ ولم يغنِ عنهم شيئًا، وتابعوا رميَ النفطِ الطيارِ عليها فلم يؤثر فيها، فأيقنوا بالبوار والهلاكِ..

في خضمِ الليلِ اجتمعَ القادةُ مع قراقوش يتدارسونَ أمرَ الانسحابِ منْ عكًا أوْ محاولةِ الإجهاز على الأبراجِ، وكادَ القومُ يتفقونَ على الانسحابِ وترك عكًا كلّها للصليبين، عندَ ذلكِ كانَ قراقوش في همٍّ وغيظٍ تبدو قسماتُ الحزنِ على وجههِ، كانَ يفكرُ كيفَ يترُكُ عكًا للصليبين؟، لقد أوشكتْ هذهِ الأبراجُ أن تحسمَ المعركةَ لصالحِ الصليبيين!!

عندَ ذلكَ دخلَ الحاجبُ مقر القيادةِ وأخبر قراقوشَ أنَّ هناكَ شابًا منْ دمشقَ بالبابِ يريدُ مقابلته لأمرٍ هامٍ.

أمر قراقوشُ الشاب بالدخولِ.

دخلَ مجاهد إلى مقرِ القيادةِ ورأىَ الوجومَ في وجوهِ قراقوش وقوادهِ عندها سألهُ قراقوشُ:

ماذا تريدُ أيُّها الفتى؟

ـ أنا جئت من دمشق للمشاركةِ في هذه الحروبِ.

ـ وماذا تفيدُنا الآن؟

كنتُ أعملُ في دمشقَ بالأدويةِ والعقاقيرِ وأحضّرُ السوائلَ التي تزيدُ اشتعالَ النارِ، وقد قمتُ بتحضيرِ بعضِ السوائلِ علَّهَا تنفعكمْ في إحراقِ الأبراجِ التي أهلكتِ الحرثَ والنسلَ.

ـ لم نتركْ وسيلةَ إلا استخدمناها، ولم نتركْ عقاراً إلا جربناهُ، وعندنا الخبراءُ في ذلكَ وقد عجزوُا ولم يفلحُوا، اذهبْ، باركَ اللّهُ فيكَ.

قال بعض الحاضرينَ. لعلَّ الله تعالى قد جعلَ الفرجَ على يدِ هذا ولا يضرُنا أنْ توافقَهُ على قولهِ.

قال قراقوشُ: لابأس، وأمرَ المنجنيقيَّ بامتثال أمره.

في صباح اليوم التالي أحضرَ مجاهدٌ القدورُ التي ركَّبَ فيْها الموادَّ السائلةَ وطلبَ منَ المنجنيقي يرميها على الأبراجِ دونَ أنْ يشعلَ النارَ فيها.

امتثلَ المنجيقي لأمرِ مجاهد وصار يرمي الأبراجَ بالقدور.

وكانَ جنودُ الصليبين إذا رأوا القدور لا تحرقُ شيئًا يصيحونَ ويرقصونَ، ويلعبونَ على سطحِ البرجِ. وهم لا يبالونَ بما يُلقى عليهمْ.

عندما أيقن مجاهدٌ أنَّ الذي أُلقيَ على الأبراج قدْ تمكنَ منْهُ واختلطَ بالجلدِ والطينِ والأخشابِ أمرَ المنجنيقي أنْ يلقيَ على البرجِ الأولِ قدراً مملوءةً وجعلَ فيها النار، فما أنْ وصلت النيرانُ على البرجِ الأول حتىَّ اضطرمتْ في نواحيه وامتد لهيبُها إلى الطبقات الخمسة، فهلك أكثرُ منْ فيها، وصارَ من بقي منهم يستغيثُ ويصرخُ ولكن لا فائدة من صراخهم، فالنارُ الملتهبةُ ستنالهمْ بعدَ قليلٍ.

وما أنْ رأىَ الجنود النارَ في البرجِ الأولِ حتى كبَّروا وحمدوا الله وطلبُوا من المنجنيقَي الإسراع في رمي الأبراج كلِّها فرماها واشتعلت النيرانُ بجميعها، فكان يومًا مشهوداً لم يرَ الناسُ مثلَهُ. وقدْ اسفرت وجوهُم بعدَ الكآبةِ بالفرح والسرور وأخذوا يلهجونَ بالدعاءِ إلى الله سبحانه وتعالى الذي منَّ عليهم بالنصرِ العظيم.

وأسرعوا إلى مجاهدٍ يقدمون له الشكر الجزيل.

سُرَّ قراقوشُ مما فعلهُ مجاهدٌ سروراً عظيمًا وخرَّ لله شاكِرًا ورفع يديهِ بالدعاءِ للفتى وللمسلمينَ.

وحُمل مجاهدٌ إلى صلاحِ الدينِ الذي استقبلَهُ استقبالَ الأبطالِ الفاتحينَ، فبذلَ لهُ الأموالَ الجزيلةَ والاقطاعَ الكثيرةَ فلمْ يقبلْ منْهَا شيئًا وقالَ: إن الذي

عملتهُ للهِ تعالىَ، ولا أريدُ الجزاءَ إلا منهُ.

أُعجب صلاحُ الدين من هذا الفتى الشجاع القوي التقي، وكم تمنى أن يكونَ شبابُ المسلمين مثلَهُ.